ISSN: 2321-7928

ملحق المقالة: "الألفاظ الهندية المعرّبة"

بدء العلاقات العلمية بين الهند والعرب

- د. محمد يوسف[1]

من المعروف أنه لم يكن هناك اسم واحد يطلق على الشبه قارة الهند والباكستانية بأكملها بل كانت الأقاليم المختلفة تعرف بأسمائها كل على حدة وربما شمل اسم العاصمة جميع المناطق الواقعة تحت سلطتها أو نفوذها. وكان نهر "السند" الذي يذكره العرب القدماء باسم "مهران"- معروفًا باسمه الحالي إلى أن امتدّ إليه نفوذ أهل فارس في العصر القديم فسمّوه "هندهو" جريًا على عادتهم في إبدال السين في السنسكرتية بالهاء، ولذلك أمثلة كثيرة في اللغة الفارسية القديمة. ثم جاء العرب فأقروا اسم "السند" للأراضي الواقعة على ضفتي ذلك النهر وبدأوا يطلقون "الهند" على ما وراءها. [2]

كان العرب قد عرفوا الهند قبل الإسلام وأحبّوها إلى حد أنهم اتخذوا منها اسمًا لنسائهم. ولكنهم إنما عرفوا عطورها وأحجارها وسيوفها وثمارها، ولما كانت تجارتهم عن طريق البحر كان من الطبيعي أن يقتصر اتصالهم على الشواطئ والسواحل، ولاسيما الساحل الغربي والجنوبي، لا أدلّ على ذلك من أسماء في العربية، هي في الأصل أسماء للأمكنة التي كانت تستورد منها مسمياتها، مثل المندل والهيل.[3] ثم جاء الإسلام فصارت هذه المعرفة والصلة التجارية من أهم ما وجه المسلمين من عرب عمان والمناطق الساحلية المجاورة لها إلى شن الغارات البحرية بغية تأسيس دعائم

[1] أستاذ اللغة العربية، جامعة كراتشي (باكستان)

[2] السيد سليمان الندوي: عرب وهند كي تعلقات، ص 12.

[3] على الترتيب، العود المستورد من "كورمندل" كان العرب يطلقون عليها "المعبر" أيضًا وفوه "هال" أو "هبل" (بالعامية: حب هان) المستورد من رأس هيلي أو "أيلي" بجنوب الهند بالقرب من كورومندل. كانت ميناء ومدينة عامرة أيام زيارة ابن بطوطة لها، راجع الرحلة، 4/81.

حكمهم على مواقع من ساحل السند وكجرات بالقرب من بومباي وبهروج (بروص) ودبيل بالقرب من كراتشي. وكان ذلك في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب الذي كان شديد الحذر من (حمل الدود على العود)، ثم تكررت محاولة من هذا القبيل في عهد عثمان أيضًا، ولكن لم يكن لهذه الغزوات أثر يذكر، ومضى العرب في هذه الأثناء قدمًا من نصر إلى نصر حتى تمّ لهم فتح بلاد فارس كلها، وصارت حدود دولتهم الشرقية تتأخم حدود مملكة السند الغربية مباشرة بحيث تسنّى للبغاة والطغاة التسلل عبر الحدود والالتجاء بملك السند، مما زاد في اهتمام العرب بتجارتهم، وفي الوقت الذي كانت الممالك الشرقية للدولة الأموية قد استكملت قوتها واستعدادها لشنّ هجوم شامل برًا وبحرًا معًا بعد أن انتظمت أمورها، وسلست صعابها تحت إمرة حاكمها الحازم ذي البأس الشديد الحجاج بن يوسف الثقفي، في ذلك الوقت سبّبت الصلة التجارية بصورة مألوفة في التاريخ القديم والحديث على السواء، التدخل السياسي والعسكري من جانب العرب، وذلك بأنّ بعض القراصنة استولوا بالقرب من ديبل على مركب كان ينقل إلى العراق عددًا من الأرامل واليتامى لبعض التجار العرب الذين وافتهم آجالهم في جزيرة سيلان، ثم اعتذر داهر ملك السند بعجزه عن تنفيذ طلب الحجاج بمعاقبة المجرمين وتسليم الأسرى، فلم يكن منه هو الآخر إلا أن ندب ابن أخيه الشاب محمد بن القاسم الثقفي لغزو السند نهائيًا.[1]

دخل محمد بن القاسم السند في سنة 89هـ ووفّق في إنجاز مهمته توفيقًا تامًا فإنه تمكن في بحر خمسة أعوام من القضاء على مملكة داهر، وفتحها المسلمون من منابع نهر جهيلم بكشمير في الشمال إلى البحر في الجنوب وإلى حدود مملكة قنوج (كنوج) بالقرب من ملتان وحدود كجرات في الشرق، ومنذ ذلك الحين ظل إقليم السند جزءًا من الدولة الأموية تعاقب على حكمه عددٌ من الأمراء العرب سعى بعضهم لتوسيع نطاقه في الشرق، وعلى ساحل كجرات فلم يلقوا في ذلك كبير نجاح، ولكنهم على كل حال بقوا

[1] الفتوح للبلاذري، 431-432 و435

أقوياء قادرين على إخماد الثورات مالكين لأزمة الأمور في الداخل.

وهكذا أصبحت للعرب علاقات سياسية وطيدة مع الهند بعد أن كانت لهم علاقات تجارية قوية معها فيما قبل الإسلام، وكان من المحتوم على هذه القاعدة الجديدة للعرب داخل أراضي الهند أن تصبح مبدأ خط لسير العلوم والآداب الهندية إلى عاصمتهم، ولكن الحركة- لأسباب طبيعية عامة- إنما نمت وازدهرت في العهد العباسي الأول، أما في العهد الأموي فلا يلفت نظرنا إلا ظواهر معينة هي بمثابة المقدمة لما نحن بصدده في مقالنا هذا.

كان العرب قد عرفوا من قبل الزط (جات) والميد، وهما قبيلتان من قبائل السند عرفتا بالغزو والتهور والشراسة، فجندهما الفرس، وربما كثر احتكاكهما بالعرب حتى أننا نجد عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- يقول عن بعض من رآهم في صحبة النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ رجال كأنهم الزط أشعارهم وأجسامهم (سنن الترمذي، باب الأمثال) مما يدل على أنهم كانوا معروفين لدى العرب تمامًا في ذلك الوقت. [1]

ثم بعد أن تمّ فتح فارس على أيدي العرب انخرطت هاتان القبيلتان، ولا سيما الزط في جنود الإسلام. استخدمهم سيّدنا علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- لدراسة أموال البصرة في وقعة الجمل، وأنزلهم معاوية في مدن الشام الساحلية لمواجهة الروم، وعمرهم وليد ابن عبد الملك في أنطاكية.[2] هذا ما يتعلق بالعصر الذي سبق فتح العرب للسند. أما بعد ذلك فقد تيسّر للعرب أن يعرفوا لا الزط المحاربة فحسب، بل السنديين عامة، ومن أهم ما ساعد على ذلك نقل عدد كبير من العبيد والإماء أسرى الحرب إلى

[1] يرجح أنّ الامام أبا حنيفة كان من سلالة هؤلاء الزط، فإنه ذكر أنّ جده زوطي كان من كابل (حسب الرواية المشهورة، راجع ابن خلكان وتهذيب الأسماء للنوي) نقل إلى الكوفة بين أسرى الحرب، أما ادعاء حفيده إسماعيل بن حماد، الانتساب إلى أسرة مالكة في الفرس فتلك محاولة معروفة حاولها كثير من الموالي لإثبات أصالتهم في العز الذي نالوه في الإسلام.

[2] البلاذري: الفتوح، 375-379.

العاصمة،[1] وبعض المدن الكبيرة الأخرى. وهنالك بدأ العرب يتبعون خصائص وعوائد هذا العنصر الجديد بعناية كبيرة، كما أنّ أولئك الدخلاء أقبلوا على الأخذ بأسباب الحضارة العربية بجد واهتمام، ولم يلبث العبيد من أهل السند أن بدأوا يساهمون مساهمة فعالة في الحوادث الجارية حتى أنه ذكر أنّ أحدًا منهم (ابن زياد بن أبي كبشة) اشترك في قتل الخليفة الوليد بن يزيد في سنة 126هـ.[2] أما مدى سرعة تعربهم واندماجهم في المجتمع والثقافة العربية، فيمكن أن نقدرها بوجود علماء أجلاء أمثال أبي معشر نجيح بن عبد الرحمن السندي،[3] وابن الأعرابي،[4] ورجال الحكومة مثل السندي بن شاهك،[5] وشعراء أمثال أبي عطاء السندي وأبي الأصلع،[6] كله موالٍ انحدروا من أصل سندي، لم يتجاوز عهدهم جيلين وثلاثة على فتح السند، وقد استغنيت بذكرهم عن التعرض للذين نشأوا فيما بعد.

لا شك أنّ الأرقاء وغيرهم من عامة أهل السند لم يكونوا ليعرفوا العرب إلا برطانتهم، وجعلهم الجيم زاء وببعض الملح تتعلق بالعجائز والخصيان منهم،[7] وما إلى ذلك من عجائب العوائد وغرائب الأخلاق كما أشرت إليه آنفًا، وربما كان وجودهم مثار التساؤل بين أهل الفكر عن مدى الحضارة والعلوم وحكمة الهند ومبعث تطلع الأذهان إلى الوقوف عليها، ولكن التبادل العلمي ونقل الآداب الهندية إلى العربية

[1] انظر قول أبي النجم العجلي: علقت خودًا من بنات الزط إلخ.

[2] ابن الأثير، 5/217

[3] شذرات الذهب، 1/278 سمع عنه الواقدي بالمدينة

[4] "كان أبوه زياد عبدًا سنديًا" ياقوت: معجم الأدباء.

[5] السندي بن شاهك مولى جعفر المنصور كان أميرًا على دمشق فأخرب سورها في فتنة أبي الهندام في سنة ست وسبعين مئة في خلافة هارون ولي القضاء ببغداد وكانت وفاته هناك. ترجمته في مرآة الزمان نسخة دار الكتب المصرية الجزء السادس الورقة 42 وكان للسندي هذا ابن يسمى إبراهيم روى عنه الجاحظ كثيرًا (البيان والتبيين، 141/1)

[6] أبوعطاء معروف ترجمته في الأغاني وأبو الأصلع الهندي له ذكر في المرزباني، ص 513. (أبو الضلع كذا في الفهرست، ص 164) والحيوان، 7/171.

[7] البيان والتبيين (تحقيق عبد السلام هارون)، 1/70، 74، والحيوان، 1/118.

أنما كان يتوقف- ولا غرو في ذلك- على الجمع بين الخاصة وأهل العلم من الطرفين العرب والهنود، وهل يتأتى ذلك إلا إذا استقرت الأحوال الداخلية وتفرغ أولو الأمر لتشجيع الحركات العلمية ورعاية الأدب وذويه.

كانت أواخر أيام بني أمية الوهن والاختلال والفتن أعقبها الانقلاب العباسي، فلاقى أبو مسلم الخراساني بعض العناء في إخضاع منصور بن جمهور الكلبي ذلك الطاغية الذي كان قد اغتصب ولاية السند منذ زمن غير بعيد، ولكنه نجح أخيرًا في ضمّ هذه الولاية للسفاح على يد موسى بن كعب التميمي في سنة 134هـ، وقد اقترن ظهور العباسيين بنقل العاصمة من دمشق إلى بغداد فازداد التقارب من السند جغرافيًا، مع ما هو معروف عن الخلفاء العباسيين وأعيان السلطنة في عهدهم من الميل الشديد إلى الفرس والعجم وحضاراتهم وآدابهم.

لم تكد الأمور تنتظم في العهد الجديد حتى نرى وفدًا من أهل السند يفد على السفاح، وذلك قبل موته بثلاثة أيام،[1] لا نعلم إذا كان هذا الوفد يضم أحدًا من أهل العلم، ولكن على كل حال لم يكن له أثر يذكر لمصادفة وصوله في وقت غير ملائم.

ثم استمرت الأحوال تتهيأ لجلب العلوم من الخارج في عهد المنصور مما حفز أهل العلم في المسند إلى عرض ما لديهم، فوصل أحد منهم كان متضلعًا في علم الهيئة والرياضيات، إلى بغداد في سنة 154هـ، فتقدم إلى الخليفة بكتاب "سدهانت" (السند هند[2]) الذي قام إبراهيم الفزاري بترجمته إلى العربية،[3] واطلاع العرب على "سدهانت" يعد نقطة هامة لا من حيث كونه بداية حسنة للتبادل العلمي بين الهند والعرب فحسب، بل من حيث الآثار المترتبة على ذلك أيضًا، فإنه وأن يعلم بالضبط متى تعلم العرب، "الأرقام الهندية" فالمظنون أنهم تعلموها عن طريق ترجمة "سدهانت" الذي يحتوي البابان

[1] تاريخ اليعقوبي، 2/433

[2] قال البحتري (د. الجوائب، 160/2): ألست بالسند هند ذا بصل إن لم تفق حاسبيه تنتصف.

[3] البيروني: كتاب الهند، ص 208

الثالث عشر والرابع والعشرون منه على بسط وبيان لتلك الأرقام،[1] على كل حال نال "سدهانت" من إقبال العرب وتقديرهم ما كان سبباً لرفع صيت الهند إلى درجة عالية، آية ذلك أنهم قاموا في مدة قصيرة بترجمة كتابين آخرين في علم الهيئة هما "أرجبهذ" (الأصل: أرية بهت) و"أركند" (الأصل كهند اكهنديك Khanda - Khadyaka) نقل الأول أبو الحسن الأهوازي والثاني يعقوب بن طارق في سنة 161هـ. [2]

وعلى إثر هذه البداية الحسنة لا بد أنّ الأمراء وأهل العلم في بغداد قد عرفوا واعترفوا ببراعة أهل الهند في ميادين أخرى، ولاسيما الطب، فلذلك نراهم يشيرون على هارون الرشيد إبان مرضه باستخدام الطبيب الهندي الشهير "منكه" (مانك) وورد الطبيب الهندي فنج في علاج الخليفة وحظي عنده وبقي يشرف على نقل الكتب السنسكريتية.[3]

وفي هذه المرحلة أي بعد أن كان الطريق قد مهّد لحركة نقل العلوم من الهند إلى بغداد

[1] عرب و هند کے تعلقات، ص 134، هذه الأرقام معروفة عند العرب بـ"الأرقام الهندية" وعند الإفرنج بـ"الأرقام العربية" (Arabic figures) لأنهم بدورهم أخذوها من العرب، أعني عرب الأندلس وربما سماها عرب الأندلس "حساب الغبار" لأن الهنود كانوا يرسمونها على التراب أو الرمل بدل اللوحة أو السبورة لتعليم الأولاد كما يشاهد ذلك في بعض أرياف الهند إلى يومنا، انظر قول الشاعر يصف التخت الذي يضرب عليه حساب الهند.

ثوقلم مداده تراب
في صحف سطورها حساب
يكثر فيها المحو والإضراب
من غير أن يسود الكتاب
حتى يبين الحق والثواب
وليس إعجام ولا إعراب
فيه ولا شك ولا ارتياب

[2] هناك الألفاظ الهندية التي بقيت كمصطلحات علم البيئة بالعربية: "كردجه" (الوتر المستوي) أصلها بالسنسكريتية "كرجيا": "جيب" أصلها "جيوا" "اوح" أصلها "اوج" بالجيم الفارسية "ارين" من "اجين" اسم بلدة في وسط الهند، "ادماسة" أصلها "ادهماسا".

[3] ابن أبي أصيبعة، 2/33

يطالعنا التاريخ بظاهرة قوية، يجدر بنا أن نقف عندها لعلنا نكتشف حقيقة طالما غمضت على كثير من المؤرخين القدماء والمحدثين، وتلك الظاهرة هي التي أشار إليها ابن النديم بقوله: "الذي عني بأمر الهند في دولة العرب يحيى ابن خالد وجماعة البرامكة واهتمامها بأمر الهند وإحضارها علماء طبها وحكمائها" (كذا/الفهرست 345).

فما هو مبعث هذه النزعة إلى الهند وعلومها في نفوس البرامكة؟

لنبحث عن أصل البرامكة حتى نصل إلى جواب لهذا السؤال.

البرامكة من أصل بوذي لا مجوسي: المعروف عن البرامكة أنّ أجدادهم كانوا يتولون قبل الاسلام معبدًا للمجوس ببلخ، وكان "برمك" لقبًا لرئيس سدنة ذلك البيت الذي كان يسمّى "نوبهار". أما أصل كلمة "برمك" من ناحية اللغة فلم يتعرض له القدماء. وجاء المتأخرون من المؤرخين وأصحاب المعاجم من الفرس فقالوا بأن الكلمة مشتقة من المصدر "برمكيدن" أي المص بالفارسية وأيّدوا قولهم هذا برواية مؤداها أنّ أول "برمك" أسلم (بعد أن خرب قتيبة بن مسلم "نوبهار" في سنة 86هـ) لما وقف أمام الخليفة اضطر إلى الاعتراف بأنه كان يحمل معه سمًا في خاتمه حتى يمصه (بالفارسية: "برمكم") إذا وجد الموت خيرًا من حياة الخزي. وهذه الرواية مختلفة بدليل أنّ المؤرخين مجمعون على أنّ "برمك" لقب قديم كان يلقب به رؤساء "نوبهار" قبل الإسلام بكثير. وقال بعض آخرون إنّ برمك اسم لمكان والنسبة إليه "برمكي" وأتى ابن الفقيه الهمداني وياقوت بتعليلين في منتهى الغرابة حينما قال الأول إنّ "برمكة" يعني حاكم مكة،[1] وذلك لأنّ معبد بلخ كان قد أنشئ ليكون نظيرًا لمكة، وقال الثاني إن "بر" هنا بمعنى الابن وأن "برمكة" إنما يعني ابن مكة.[2] وهذه الأقوال كلها ظاهرة البطلان لا تستحق التعليق عليها بشيء.

[1] كتاب البلدان ص 323 "فسمّوا سادنها الأكبر برمكًا" أي أنه باب مكة ووالي مكة فصار كل من ولّي منهم ذلك يسمّى برمكًا".

[2] معجم البلدان (نوبهار) "كانوا يسمون السادن الأكبر "برمكًا" لتشبيههم البيت بمكة يسمّون سادنه ابن مكة فكان كل من ولي منهم السدانة برمكًا".

وذهب الكاتب الهندي عبد الرزاق مؤرخ "البرامكة" (باللغة الأردوية) إلى أنّ أصل "برمك" هو "برمغ"- "بر" يعني كبير و"مغ" (magos باليونانية و"مجوس" بالعربية) يعني عبدة النار. وعلى هذا "برمك" يكون معناه "رئيس المجوس" وهذا القول يظهر أنه قريب جدًا إلى الصواب، مع أنه لم يعرف بعد مثال آخر لإبدال "الغين" "بالكاف" في التعريب، إلا أنه قد بقي أن نتأكد إذا كان معبد بلخ معبدًا للمجوس يعبدون فيه الأصنام ويعبدون فيه النار أو معبدًا للبوذيين يعبدون فيه الأصنام أو "البد" على حد تعبير المؤرخين العرب.

من حسن الحظ أنّ بأيدينا وصفًا مسهبًا لهذا المعبد عند المسعودي والهمداني وياقوت يمكننا، إذا أمعنا النظر فيه، من الاهتداء إلى جواب على هذا السؤال وهاك ما يقوله ياقوت عنه: "قال عمر بن أزرق الكرماني: كانت البرامكة أهل شرف على وجه الدهر ببلخ قبل ملوك الطوائف. وكان دينهم عبادة الأوثان... ونصبوا حوله (أي حول بيت النوبهار) الأصنام وزينوه بالديباج والحرير وعلّقوا عليه الجواهر النفيسة... وكانت الفرس تعظمه وتحج إليه، وتهدي له وتلبسه أنواع الثياب وتنصب على أعلى قبته الأعلام: وكانوا يسمون أعلى قبته "الاستن" وكانت مئة ذراع في مثلها وارتفاعها فوق مئة ذراع بأروقة مستديرة حولها وكان حول البيت ثلثمائة وستون مقصورة ليسكنها خدامه وقوامه وسدنته، وكان على كل واحد من سكان تلك المقاصير خدمة يوم لا يعود إلى الخدمة حولًا كاملًا، ويقال إن الريح ربما حملت الحرير من العلم الذي فوق القبة فتلقبه بترمذ وبينهما اثنا عشر فرسخًا... وكانت ملوك الهند والصين وكابل شاه وغيرهم من الملوك تدين بذلك الدين وتحج إلى هذا البيت، وكانت سنتهم إذا هم وافوه أن يسجدوا للصنم الأكبر ويقبل يد "برمك".

هذا الوصف لياقوت في معجم البلدان (النوبهار) يطابق لفظًا ما أورده الهمداني (البلدان ص 3-322) بحيث يصبح من المؤكد أنهما استقياه من مصدر واحد وأن لم يذكر هو الآخر اسم عمر بن أزرق الكرماني كما فعله ياقوت هو الأول. كذلك يوافق

هذا الوصف معنى ما جاء في مروج الذهب- 4/48- للمسعودي (أيضًا: آثار البلاد للقزويني 221) ومما يجدر بالملاحظة والتنبيه عليه في هذا الوصف.

أولًا: لم يرد فيه ذكر للنار حتى يقال إن النوبهار كان بيتًا من بيوت النار.

ثانيًا: بالعكس نص فيه على أنّ معبد بلخ لم يتجاوز أن يكون بيتًا لعبادة الأوثان والأصنام التي كان من بينها "الصنم الأكبر" الذي كانت سنتهم إذا هم وافوه أن يسجدوا له.

ثالثًا: من المعروف أنّ "ملوك الهند والصين وكابل شاه" ولنضف إليهم نيزك طرخان ملك تركستان الذي جاء عنه في الهمداني وياقوت (وستنقل هذه القطعة فيما بعد) أنه غضب من قبول البرامكة الإسلام وزحف إليهم بجيشه ونكل بهم كل هؤلاء الملوك لم يكونوا يدينون إلا بالدين البوذي (Budhism).

رابعًا: إنّ "الأستن" "آسبت" "أست" ليست إلا أشكالًا محرفة لكلمة "أستب" بالأصل "أستوب" (stupa) وهي تطلق على معبد البوذيين الذي أودع فيه رماد جثة بوذا، وقد كان الرماد قسم ودفن داخل قباب مبعثرة، في عدد من الممالك التي كانت البوذية سائدة فيها، ولا تزال المعابد من هذا النوع موجودة في الهند منها "أستوب سانجي" بالقرب من مسقط رأسي مدينة بوفال في وسط الهند. يظهر أن الكتّاب كانوا أعرف بكلمة، "الأستن"، أي العامود بالفارسية فحرفوا "أستب" إلى ذلك الشكل ثم هناك أدلة أخرى ترشدنا إلى الجزم بأن معبد بلخ إنما كان معبدًا للبوذيين وهي:

(أ) إنّ بلخ جزء من إقليم خراسان وما وراء النهر ومن المحقق أنّ "على هذا المذهب السنية أي البوذية كان أكثر أهل ما وراء النهر قبل الإسلام". (الفهرست 345).

(ب) يزيد المسعودي في وصف النوبهار فيقول: "وقد ذكر بعض أهل الرواية والتنقير أنه قرأ على النوبهار ببلخ كتابًا بالفارسية ترجمته: قال بوذاسف أبواب الملوك تحتاج

إلى ثلاث خصال عقل وصبر ومال، وإذا تحته بالعربية[1] كذب بوذاسف الواجب على الحر إذا كان معه واحدة من هذه الخصال أن لا يلزم باب السلطان".

أما "بوذاسف، فلا شك أنّ المراد منها "بوذا" لا غير ولعل أصلها "بودهاستور" كما ذهب إليه المحقق زخاؤ: (أنظر مقدمة الترجمة الإنجليزية لكتاب الهند).

وقد وردت هذه الحكاية أيضًا في مسالك الأبصار (224/1) لابن فضل الله العمري وهناك "سوراشف" بدل "بوذاسف" مصحفًا.

(ج) قال العمري أيضًا: "بناه منوشهر الهندي وكان يأتيه من الصائبة من يتقرب بالقمر لا يستبعد أن يكون المراد من المتقربين بالقمر" الهندوس لا غير بناء على أنّ البعض يرون أنّ أصل "هندو" هو "أندو" أي القمر (قارن السعودي: "النوبهار- بناه منوشهر ... على اسم القمر".

(د) قد ورد لهذا المعبد ذكر كمعبد البوذيين في مذكرات السائح الصيني هوان كوانك الذي زار بلخ في القرن السابع الميلادي أي قبيل أو بعيد فتح العرب لها (دائرة المعارف الإسلامية "Barmakids").

فهل من شك في أنّ النوبهار لم يكن بيتًا من بيوت النار يعبد فيه المجوس بل أنما كان معبدًا للبوذيين يعبدون فيه الأصنام أو "البد" وإذا وثقنا من هذا فليس من الصعب الاهتداء إلى أنّ أصل النوبهار هو "نووهار" وهار اسم معروف لمعبد البوذيين والخانقاه حوله ولا يزال إقليم الهند الشمالية الذي ولد فيه بوذا يسمى بهار (Bihar) إلى وقتنا هذا. وليس بمستغرب أن خفي الأمر على العرب فإنهم كانوا أعرف بكلمة "بهار" الفارسية فلذلك قالوا: "وتفسير النوبهار البهار الجديد لأن "نو" الجديد، وكانت سنتهم إذا بنوا بناء حسنًا أو عقدوا بابًا جديدًا أو طاقًا شريفًا كلّلوه بالريحان وتوّجوا

[1] مسالك الابصار: "ثم لما ملك الإسلام مدينة بلخ، كتب تحت هذه الكتابة بالعربية ... إلخ.

ذلك بأول ريحان يطلع في ذلك الوقت، فلما بنوا ذلك البيت جعلوا عليه أول ما يظهر من الريحان، وكان البهار فسمي نوبهار لذلك" (ياقوت)، هذا وقد اتفق للعرب إبان فتحهم للسند "أن عرفوا معابد للبوذيين من قبيل وهار، وهاك ما أورده البلاذري في وصف واحد منها:

وكان بالديبل بد عظيم عليه دقل طويل وعلى الدقل رأية حمراء إذا هبت الريح أطافت بالمدينة، وكانت تدور، والبد فيما ذكروا منارة عظيمة يتخذ في بناء لهم فيه صنم لهم أو أصنام ليشهر بها وقد يكون الصنم في داخل المنارة أيضًا، وكل شيء أعظموه من طريق العبادة فهو عندهم بد والصنم بد أيضًا".

أو لا تؤكد المقارنة بين وصف معبد البوذيين هذا وبين وصف النوبهار بأنّ الواحد لم يختلف عن الآخر؟

كذلك نرى العرب يخبطون خبط عشواء في تفسير "برمك" فإنهم لم يكونوا ليتصوروا أن تكون كلمة "مك (مكا)" غير "مكة" فاضطروا إلى القول أنّ البرامكة "وصفت لهم مكة وحال الكعبة بها ولما كانت قريش ومن والاها من العرب يأتون إليها ويعظمونها فاتخذوا بيت النوبهار مضاهاة لبيت الله الحرام" (ياقوت) أما "بر" فقد كان في متناولهم كلمة "بور" بمعنى الابن بالفارسية فلجأوا إليها. ثم جاء المؤرخون واللغويون من الفرس فلم يكن منهم إلا أن اعتمدوا على علمهم باللغة الفارسية فتخرصوا بأن تكون "برمك" مشتقة من "برمكيدن" ثم دعموا هذا التخرص برواية مختلفة كما مرّ. ولكن الحقيقة التي تنسجم "وهار" وأباها هي أنّ "برمك" أصلها باللغة السنسكريتية "برمك" ومعناها الصدر أو ذو الرئاسة العليا، لم يلقب بهذا اللقب أحد من سدنة بيوت النار أو معابد المجوس، بل إنما اختص به رؤساء النوبهار لأسباب ذكرناها آنفًا ولعل من الواجب في هذا المقام أن أثبت أنّ أول من أشار إلى كون "النوبهار" معبدًا للبوذيين (وهار) هما المستشرقان زخاو (مقدمة الترجمة الإنجليزية

لكتاب الهند، ص 31) وبرتهالد (Barthold) (دائرة المعارف الإسلامية) (Barmakids) كما أنّ الأول هو الذي بحث عن الأصل السنسكريتي لكلمة "برمك" ثم تتبع نتائجهما الكاتب الهندي الدكتور السيد سليمان الندوي الذي يرجع إليه الفضل في بسط الدلائل كما قد اقتبستها هنا من كتابه "عرب وهند كي تعلقات 102-124"، ثم يمضي الدكتور السيد سليمان الندوي خطوة أخرى فيلفت النظر إلى أنّ القول بانحدار البرامكة من أصل إيراني ينتقض أيضًا بما جاء به ابن الفقيه الهمداني (وياقوت حرفًا بحرف) وهذا نصه:

"فلم يزل يليها برمك إلى أن فتحت خراسان أيام عثمان بن عفان وقد صارت السدانة إلى برمك أبي خالد فوجه برمك إلى عثمان في الرهائن فورد المدينة ورغب في الإسلام فأسلم وسمّي عبد الله ورجع إلى ولده وصارت البرمكة في بعض ولده فكتب بعض الملوك إلى برمك يعظم ما أتى من الإسلام ويدعوه إلى الرجوع في دين آبائه فكتب إليه برمك أني إنما دخلت فيه اختيارًا وعلمًا بفضله عن غير رهبة (ولا رغبة)[1] ولا أرجع إلى دين بادي العوار متهتك للأستار فغضب الملك وزحف إلى برمك بجمع كثيف فكتب إليه برمك قد عرفت حبي للسلامة وإني إن استنجدت عليك الملوك أنجدوني فانصرف وإلا صرت إلى لقائك، فانصرف عنه ووادعه ثم لم يزل ذلك الملك واسمه نازك (نيزك) طرخان يغتر برمك ويطلبه حتى بيته وقتله وعشرة بنين له فلم يبق لهم برمك سوى برمك أبي خالد فحملته أمه وهربت به وكان صغيرًا إلى بلاد قشمير، فنشأ برمك وتعلم النجوم والطب وأنواع الحكمة، وبقي على شركه وأصابهم وباء فتشاءموا بمفارقة دينهم فكتبوا إلى برمك فقدم عليهم فأجلسوه في موضع أبيه فتولّى أمر النوبهار فسمي برمكًا وتزوج ابنة ملك الصغانيان فولدت له الحسن وبه كان يكنى وخالدًا وعمرًا وأمّ خالد، وسليمان بن برمك من

[1] كذا. زيادة في ابن الفقيه لا توجد في ياقوت.

امرأة غيرها من أهل بخارى وكان صاحب بخارى أهدى إلى برمك جارية فولدت له كال بن برمك وأم القاسم وبنتا أخرى (كتاب البلدان 323-324).

هذا وقد جاء في النويري (نهاية الأرب 29/12) عن محمد بن العباس المسكي عن الأسباب التي حملت البرامكة على اللجوء إلى الهند ما هو أقرب إلى الصواب فإنه يقول: "لما قلت الأموال في أيديهم (الأمويين) شرعوا في مصادرات الرعايا وأخذوا الأموال من غير وجوهها وتعرضوا إلى أموال الأوقاف والأيتام فتعرض ولاة خراسان لبرمك ولولده. وطالبوهما بالأموال وكان تحت يد برمك أوقاف جليلة فهرب هو وولده من أعمال خراسان إلى بلاد الهند فأقاموا بها إلى أن ظهرت الدولة العباسية... ثم قدم خالد بن برمك وأخوه الحسين وأهلهما على المنصور أبى جعفر لما أفضت الخلافة إليه فاصطنعهم وأدناهم وقربهم إلخ (نفس الرواية في صبح الأعشى 2/126).

أولًا يجدر بنا أن نتساءل: لماذا هربت أم أبى خالد إلى بلاد قشمير، لأنّ أصل البرامكة كان من الهند لا من إيران ولا يخفى أن قشمير كانت مركزًا من مراكز البوذية مثل خراسان وتركستان وهناك نشأ برمك أبو خالد على دين آبائه، لا شك أنّ الفرس ادعوا انتماء البرامكة إلى جاماسب وزير كستاسب ليثبتوا أنها أسرة إيرانية عريقة في الوزارة، كما أنّ العرب حاولوا ضمّ عظمة البرامكة إلى أنفسهم بدعوى أنّ أم خالد حبلته من عبد الله أخي قتيبة لكنها دعاوٍ بقيت موضع الشك إلى أيامنا هذه. أما إلماع الشعراء إلى عبادة النار في معرض هجو البرامكة فمن السهل جدًا عدم الأخذ به لجهل العرب عامة بالفرق بين المجوس والبوذيين ولإطلاقهم "المجوس" على العجم كلهم. وأخيرًا لا ننسى أنه كان في مصلحة البرامكة التضامن مع الفرس لأغراض سياسية ظاهرة.

إذن يتضح لنا كل الوضوح تلك الظاهرة القوية التي تستوقف كل من يتتبع حركة نقل العلوم والآداب الهندية إلى بغداد، وهي عناية البرامكة التامة بهذا الموضوع، فإننا نراهم يستخدمون جميع الوسائل الممكنة لعرض ما للهند على العرب وهم في ذلك يبدون

كأنهم يعرضون شيئًا من عندهم على غيرهم. أنظر إليهم يستقدمون ابن دهن فيعهدون إليه بإدارة المستشفى المعروف باسمهم والإشراف على ترجمة الكتب من السنسكريتية (الفهرست 45/2) ثم أنظر إلى جعفر البرمكي يقدم صالح بهلة إلى الرشيد لمعالجة ابن عمه إبراهيم بن صالح (21) ويمنح إبان الشاعر جائزة قدرها مئة ألف درهم على نظمه قصة كليلة ودمنة (22) أما قصب السبق في هذا الميدان فكان ليحيى بن خالد- حفيد أبي خالد الذي نشأ في بلاد قشمير وتعلم هناك "النجوم والطب وأنواع الحكمة" فإنه هو الذي جلب من الهند علماء وأطباء أمثال بهلة ومنكه وبازيكر وقلبرقل وسندباد الذين أقاموا ببغداد، وربما أسلم بعض أولادهم مثل صالح بن بهلة والذين عرفوا العرب الطب والبلاغة عند أهل الهند،[1] ولكن أهم الأعمال التي تمت على يدي يحيى بن خالد إطلاقًا هو إرساله رجلًا في بعثة علمية إلى الهند "ليأتيه بعقاقير موجودة في بلادهم وأن يكتب له أديانهم" (الفهرست 345) فإنّ التقرير الذي وضعه هذا المبعوث ربما كان هو المرجع الوحيد للعرب والمسلمين في كل ما يتعلق بالموضوع طوال مدة قرنين إلى ظهور ذلك النابغة المحقق أبي ريحان البيروني. وقد وقع في يد ابن النديم نسخة من هذا التقرير مكتوبة "يوم الجمعة لثلاث خلون من المحرم سنة تسع وأربعين ومئتين" ومطابقة حرفًا حرفًا نسخة أخرى بخط يعقوب بن إسحق الكندي، أورد منه ابن النديم مقتطفات تتضمن وصفًا لبعض المعابد وفرق الهنود (الفهرست 345-349) ونجد بمقارنة بعض أجزاء هذه المقتطفات بما جاء في كتاب البدء والتاريخ (4/9 إلى 19) أنّ مؤلفه مطهر بن طاهر المقدسي، ربما اقتبس من ذلك المصدر نفسه. ثم إنّ بيان مطهر ابن طاهر المقدسي كأنه جزء مما جاء (مترجمًا بالفارسية) في كتاب زين الأخبار للكرديزي في هذا الباب (24) وقد نص الكرديزي على أنه أخذ عن كتاب التواريخ لأبي عبد الله محمد بن أحمد الجيهاني وزير بني سلمان (أوائل القرن الرابع الهجري) ويذهب البروفيسور مينورسكي إلى أنّ الجيهاني ربما اعتمد بدوره على كتاب المسالك

[1] البيان والتبيين، 92/1 ـ منكه كان صحيح الإسلام، كذا في الحيوان، 7/213

الكبير (أصل المختصر الذي نشره دي غويه) لابن خردادبه. هذا وقد عثرت أخيرًا على مقطوعتين في كتاب أخبار الزمان المنسوب إلى المسعودي (القاهرة 1938م ص 27)". كأنهما أصل الترجمة الواردة في كرديزي (البندان 41 - 42).

فهذا هو الجو الذي ازدهرت فيه حركة نقل العلوم والآداب الهندية إلى العرب وإنما قصدنا إلى إبراز بعض العوامل التي ساعدت في قيامها، ولا شك أنها بدأت قوية بحيث تكونت للعرب في أوائل القرن الثالث الهجرة فكرة واضحة جلية عن مدى براعة الهنود في العلوم والفنون المختلفة، كما بسطها الجاحظ في رسالة "فخر السودان على البيضان"، وكما يجملها قوله: "إنما الأمم المذكورون من جميع الناس أربع: العرب وفارس والهند والروم" (البيان والتبيين 137/1) أما استقصاء نتائج هذه الحركة فهو موضوع مستقل لا سيما إذا تذكرنا أنها استمرت فيما بعد إلى أن بلغت ذروتها في شخصية البيروني الذي مرّ ذكره آنفًا.